إشارة ديودوروس
إلى معاهدة عربية آشورية:
بين الأسطورة والتاريخ

د. السيد محمد جاد
قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة طنطا - جمهورية مصر العربية

يذكر المؤرخ اليونانيّ دِيودوروس (Diodorus)، الصقليّ المولد الذي عاش في القرن الأخير قبل الميلاد، في كتابه الذي يحمل عنوانَ: "المكتبة التاريخية"، (Bibliotheca Historica) أن ملكًا آشوريًا يُدعى نينوس (Ninus) استطاع تكوين إمبراطورية كبرى مركزها منطقة بلاد الرافدين. ويوضح أن الملك الآشوريّ استعان في أثناء حروبه بأحد ملوك العرب، ويدعى أريايوس (Ariaeus)، وأنه عقد معه معاهدة تحالف عسكريّ. يقول دِيودوروس: "أول من وصلت إلينا أخبار عنه في الروايات والسجلات التاريخية، و[أول] من قام بإنجازات عظيمة [في آسيا]، هو نينوس ملك الآشوريين. لقد كان بطبيعته رجلاً محاربًا يسعى إلى المجد، وزود مجموعة قوية من الشباب بالأسلحة، ودربهم تدريبًا كافيًا جعلهم معتادين

(قدم للنشر في ١٤٣١/١/٣هـ، وقبل للنشر في ١٤٣١/٨/٢٣هـ).

على تحمل المصاعب وعلى أخطار الحرب. وبعد أن جمع جيشًا كبيرًا عقد معاهدة مع أريايوس، ملك بلاد العرب.... وقام نينوس ملك الآشوريين، ومعه الملك العربيّ، بحملة تضم جيشًا كبيرًا ضد البابليين.... [وبعد أن انتهى نينوس من حملاته] كرَّم ملك العرب بأن قدم مقدارًا كبيرًا وملائمًا من الهدايا وغنائم الحرب، وصرفه مع جيشه إلى ديارهم"[١].

وتتميز هذه الإشارة إلى معاهدة نينوس وأريايوس بأهميتها؛ لأنها تزودنا بمعلومات عن أقدم الجماعات العربية في منطقة بادية العراق وبلاد الرافدين في بداية الألف

(1) Diodorus, 2.1.4 - 2.3.1:

"πρῶτος δέ τῶν εἰς ἱστορίαν καὶ μνὴ παραδεδόμενων ημῖν Νίνος ὁ βασιλεὺς τῶν Ἀσσυρίων μεγάλας πράξειν ἐπετελέσατο. γενόμενος γὰρ φύσει πολεμικὸς καὶ ζηλωτὴς τῆς ἀρετῆς τῶν νέων τοὺς κρατίστους. γυμνάσας δ' αὐτοὺς πλείονα χρόνον συνήθεις ἐποίησε πασῇ κακοπαθεία καὶ πολεμικοῖς κινδύνοις. συστησάμενος οὖν στρατόπεδον ἀξιλόγον συμμαχίαν ἐποιήσατο πρὸς Ἀριαῖον τὸν βασιλέα τῆς Ἀραβίας. . . . ὁ δὲ οὖν τῶν Ασσυρίων βασιλεὺς Νίνος τὸν δυναστεύοντα τῶν Ἀράβων παραλαβὼν ἐστράτευσε μετὰ πολλὴς δυνάμεως ἐπὶ Βαβυλωνίους. . . . τὸν μὲν οὖν τῶν Ἀράβων βασιλέα τίμησας δώροις καὶ λαφύροις μεγαλοπρεπέσιν ἀπέλυσε μετὰ τῆς ἰδίας στρατιᾶς εἰς τὴν οἰκίαν."

وعن إشارات ديودوروس عن العرب عمومًا، انظر: محمود إبراهيم السعدني، العرب عند ديودوروس: دراسة تحليلية، في: أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب (حصاد ٦)، ندوة اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص٤١-٨٦، وإن كان يركز على حديث ديودوروس عن الأنباط والمنطقة الشمالية الغربية.

الأخيرة قبل الميلاد[٢]، خاصة أنه لا توجد مصادر عربية تشير إلى العلاقات بين الآشوريين والعرب في تلك الآونة. لقد كانت الأماكن التي استقرت فيها هذه الجماعات تشكل "مناطق حدودية" (buffer zones) بين شبه الجزيرة وبين القوى السياسية المجاورة لها في كل من بلاد الرافدين، وسوريا وفلسطين[٣]. وقد أدَّت هذه القوى السياسية دورًا مهمًا في تحديد طبيعة استيطان الجماعات العربية المهاجرة إلى المنطقة التي تمثل الوتر الداخليّ للهلال الخصيب، مثلما حددت طبيعة العلاقة بينها وبين هذه الجماعات الوافدة، وكان ذلك الأمر يتم في بعض الأحيان، كما توضح هذه الدراسة، عن طريق عقد بعض التحالفات والمعاهدات. ربما أن الإشارة إلى المعاهدة تتسم بالإيجاز، وربما أنها أيضًا لا تخلو من الطابع الأسطوريّ، ولكنها تثبت في نهاية الأمر، بالإضافة إلى المصادر الأخرى التالية لها، وجود قبائل عربية قوية ذات دور مؤثِّر في المنطقة، بالمقارنة بطبيعة الحال بالجماعات السامية الأخرى، على حدود منطقة الهلال

(٢) هذه المصادر إما آشورية أو كلاسيكية (أيْ يونانية ولاتينية)، وبالنسبة للمصادر الأولى راجع: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الأول، الطبعة الثانية، بيروت-بغداد، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص٥٧٤-٥٩٠. وفيما يتعلق بالمجموعة الثانية من المصادر، لطفي عبد الوهاب يحيى، "الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية،" في: دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الأول، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، إشراف الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري، جامعة الرياض، الرياض، ١٩٧٧م، ص ٥٥-٧١.

(3) R.G. Hoyland, Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam, London and New York, 2001, 59-63.

الخصيب، وكذلك في منطقة بلاد الرافدين، منذ بداية الألف سنة الأخيرة قبل الميلاد(٤).

ويعتمد ديودوروس في معلوماته هنا، كما يوضح هو ذاته، على ما ذكره مؤرخ يونانيّ آخر يدعى كتيسياس (Ctesias)، يسبقه بنحو أربعة قرون تقريبًا(٥). وكان كتيسياس هذا طبيبًا من جزيرة كنيدوس (Cnidus) الواقعة في بحر إيجه إلى الجنوب الغربي لآسيا الصغرى، وعمل في بلاط الملك الفارسيّ أرتاكسركسيس (Artaxerxes) الثاني، وكَتَبَ عدة كُتُب عن تاريخ آشور وبلاد الفرس وعن الهند. ويذكر كتيسياس، فيما ينقله عنه ديودوروس، أنه اطَّلع في أثناء كتابته لبحوثه على بعض السجلات الملكية الفارسية(٦). ومع ذلك، وعلى الرغم من

---

(٤) فيما يتعلق بسمة عدم الاستقرار التي سادت المنطقة في القرن العاشر قبل الميلاد؛ راجع:

Mark Healy and Angus McBride, The Ancient Assyrians, Oxford, 1991, 6. Daniel C. Snell, ed., A Companion to the Ancient Near East, Oxford, 2005, 15 [Mario Liverani].

حيث يصنف الدويلات التى شهدتها المنطقة في العصر البرونزيّ ما بين دويلات عرقية (من بينها العرب) ودويلات مدن.

(٥) اشتهر كتيسياس في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد؛

The Oxford Classical Dictionary, s.v. Ctesias.

وفيما يتعلق باعتماد ديودوروس عليه في هذه المعلومات، راجع:

Diodorus, 2.2.2; 14.46.6.

(6) Diodorus, 2.32.4.:

"ἐκ τῶν βασιλικῶν διφθερῶν ἐν αἷς οἱ Πέρσαι τὰς παλαιὰς πράξεις κατά τινα νόμον εἶχον συντεταγμένας.

توثيق ديودوروس معلوماته بإحالتها إلى كتيسياس، وعلى الرغم من محاولة الأخير تأكيد صحتها بإشارته إلى السجلات الفارسية، فإنني سأحاول هنا أن أوضح أمرين يبدوان لأول وهلة متناقضين بعض الشيء، وإن كانا يساعداننا معًا على فهم الموضوع. أول هذين الأمرين هو أن حديث ديودوروس عن المعاهدة يغلب عليه الطابع الأسطوريّ[٧]، وآخرهما: أن هذا الحديث يحتوي مع ذلك على نواة تاريخية حقيقية[٨].

الطابع الأسطوريّ للمعاهدة:

يتضح الطابع الأسطوريّ للمعاهدة من عدة جوانب. وأول ما يبين ذلك هو تاريخ تأسيس مدينة نينوى، وظروف هذا التأسيس التي ندرك منها أنها لم تولد كبيرة بالقدر الذي يوحي به ديودوروس عندما يقول إن مؤسسها بعد أن "قام بإنجازات لم يسبقه إليها أحد، فإنه فكر في بناء مدينة لم يبن أحدٌ مثلها من قبل، ولا يستطيع أحد أن يشيد مثلها

(7) W. Robertson Smith, "Ctesias and the Semiramis Legend", The English Historical Review, 2 (1887), 303-317. Doro Levi, "The Novel of Ninus and Semiramis," Proceedings of the American Philological Society, 87 (1944), 420-428.

ويناقش المرجع الأخير بعض لوحات الفسيفساء التي تمثل الأسطورة.

(٨) قارن:

J.D.A. MacGinnis, "Ctesias and the Fall of Nineveh," Illinois Classical Studies, 13 (1988), 38-42.

مع ما يذكره من أن حديث كتيسياس عن مدينة نينوى يحتوي على بعض المعلومات التي ترجع إلى تاريخ سقوطها، "غاية الأمر أن معلوماته اشتملت على بعض الإضافات الخارجية". [الاقتباس مأخوذ من ص ٣٨].

بسهولة من بعد"[٩]. كذلك فإنه يوضح أن الملك أعطى المدينةَ طابعًا عالميًا نوعًا ما عندما وَطَّنَ فيها الآشوريين الذين شكلوا غالبية السكان، وتمتعوا بغالبية الامتيازات، وعندما سمح لمن يريد أن يفد إليها من الشعوب الأخرى بالإقامة فيها. ويتضح التعارض بين ما يذكره ديودوروس وما نعرفه من الأدلة الأثرية عندما ندرك أن تاريخ تأسيس المدينة يرجع إلى القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد، وأن أقدم الآثار المهمة التي وصلت إلينا منها ترجع إلى القرن التاسع عشر، وتُبْرِزُ أهميتَها بوصفها مركزًا دينيًا لعبادة الإلهة عشتروت[١٠].

وعلى ما يبدو فإن الأهمية الدينية للمدينة فاقت أهميتها السياسية لعدة قرون، حتى استطاع حكامها، أواخر عصر الدولة الآشورية الوسطى، التخلص من التبعية للدولة الميتانية الواقعة إلى شمالها الغربيّ مع بداية القرن الأخير في الألف

(9) Diodorus, 2.3.1:

"ἐπιφανεστάτας γὰρ πράξειν τῶν πρὸ αὐτοῦ κατειργασμένος ἔσπευσε τηλικαύτην κτίσαι τὸ μέγεθος πόλιν ὥστε μὴ μόνον αὐτὴν εἶναι μεγίστην τῶν τότε οὐσων κατὰ πᾶσαν τὴν οἰκουμένην, ἀλλὰ μηδὲ τῶν μεταγενεστέρων ἕτερον ἐπιβαλόμενον ῥᾴδιως ἂν ὑπερθέσθαι."

(١٠) أكثر منها عاصمة ومركزًا لإمبراطورية؛ بالنسبة لتاريخ المدينة القديم، انظر:

Healy and McBride, The Ancient Assyrians, 3.

وبالنسبة لأهميتها الدينية، راجع:

The Cambridge Ancient History, vol. 1, 491-493, 530 [R. Campbell Thompson].

الثاني قبل الميلاد، ثم التوسع في المنطقة المحيطة بها[١١]. وفي كل الأحوال فإن علينا أن ننتظر حتى بداية الألف سنة الأخيرة، وتحديدًا في عصر الملك آشورناصِربال الثاني (Ashurnasirpal)، الذي حكم في القرن التاسع قبل الميلاد (٨٨٩-٨٥٩ ق.م)، والذي قام بحملات كثيرة في بلاد الرافدين وبلاد الشام، حتى نشهد ازدهار المدينة بوصفها مركزًا سياسيًا وعاصمة للإمبراطورية الآشورية الحديثة[١٢]. وكما هو معروف فإن المدينة ازدهرت أيضًا بوصفها مركزًا حضاريًا وثقافيًا في عصر الملك آشوربانيبال الثاني (Ashurbanipal) (٦٦٨-٦٢٧ ق.م)، بعد ذلك التاريخ بقرنين تقريبًا[١٣].

الأمر الثاني الذي يدل على الطابع الأسطوريّ للمعاهدة هو أعمال مؤسس مدينة نينوى التي يذكرها ديودوروس، والتي لا نجد ما يثبتها في الوثائق التاريخية. لقد ذكر المؤرخ أن نينوس قضى وقتًا طويلاً في حروبه واستطاع أن يُخْضِعَ تقريبًا جميع ممالك الشرق الأدنى القديم. وهكذا فإنه بعد أن أخضع بابل اتجه شمالاً إلى أرمينيا، إذ أخضع حاكمها بارزانيس (Barzanes) وأجبره على دفع الجزية، ثم اتجه بعد

(١١) عن دور تيجلات بيلاسر (Tiglath-Peleser) الأول (١١١٤-١٠٧٦ ق.م) في هذا المجال:

The Cambridge Ancient History, vol. 2. part 2, 457-464 [D.J. Wiseman]. وكذلك:

Sabatino Moscati, Ancient Semitic Civilizations, New York, 1957, 53.

(12) Healy and McBride, The Ancient Assyrians, 6-10.

(13) The Cambridge Ancient History, vol.3, part 2, 155-157 [A.K. Grayson].

ذلك إلى ميديا (Medea) وقضى على حاكمها وعيَّن عليها أحد أصدقائه، وقضى الملك في إخضاع هذه المناطق سبعة عشر عامًا[١٤]. وبعد حملاته على المناطق الشرقية اتجه نينوس إلى الغرب، وأخضع غالبية أرجائه المعروفة لليونانيين. يقول ديودوروس[١٥]: "لقد أخضع نينوس كافة المناطق المطلة على البحر [المتوسط] وتلك الواقعة فيما وراءها، لكونه أخضع مصر وفينيقيا وجوف سوريا" وجميع أرجاء آسيا الصغرى، التي يذكرها بالتفصيل، وكذلك المنطقة الواقعة إلى الشرق منها والمحيطة ببحر قزوين.

الأمر الثالث الذي يدل على أسطورية المعاهدة هو التشابه بين اسم نينوس وبين اسم مدينة نينوى. فبعد أن ذكر ديودوروس أنه شيد المدينة بعد أن قام بإنجازات لم يسبقه إليها أحدٌ من قبل وأنها كانت فريدة من نوعها، أضاف موضحًا أنه "أعطى المدينة اسمًا مشتقًا من اسمه نينوس" وأدخل ضمن نفوذها جزءًا كبيرًا من الأراضي المجاورة لها[١٦]. وباستطاعتنا هنا أن نلاحظ على الفور ما يسوِّغ الطابع الأسطوري في اسم المدينة من خلال التشابه بين اسمها واسم مؤسسها، الذي لا يوجد ما يؤكد كونه شخصية تاريخية هو ذاته. لقد كانت عادة إطلاق أسماء الحكام على

(14) Diodorus, 2.2.1:
"καὶ ἑπτακαιδεκα ετῆ καταναλώσας. . ."

(15) Diodorus, 2.3.1-2.

(16) Diodorus, 2.3.4:
"καὶ τὴν μὲν πολὶν ὠνόμασεν ἀφ' ἑαυτοῦ Νίνον."

المدن التي أسسوها أمرًا مألوفًا عند اليونانيين، وتوجد أمثلة تاريخية كثيرة له في العصور القديمة[١٧]. وقد ربطت الأسطورة ببساطة بين الاسمين لكي تفسر السبب في كون المدينة تحمل الاسم الذي اشتهرت به[١٨].

الأمر الرابع الذي يؤكد فكرة الطابع الأسطوريّ للمعاهدة التي يتحدث عنها ديودوروس هو ما يذكره عن قصة زواج نينوس من الملكة سِميراميس (Semiramis)، والطفل الذي أنجباه والذي يدعى نينياس (Ninyas)، وخاصة عندما ندرك الصفة الإلهية لسميراميس التي تقربها من الإلهة الآشورية عشتروت[١٩]. ويتأكد ذلك أيضًا من الأعمال الأسطورية التي ينسبها ديودوروس إلى سميراميس والتي يعتمد فيها أيضًا على كتيسياس. إنه يذكر أنها قامت بحملات كثيرة على بلاد الفرس والهند، وكذلك على مصر وإثيوبيا، كما أنها أسست

(١٧) انظر على سبيل المثال ما يشير إليه هيرودوتوس (Herodotus, 7.62) من اشتقاق اسم الفرس "الميديين" من "ميديا" (Medea) التي جعلتهم يحملون هذا الاسم بعد أن كانوا يعرفون بالآريين، والمثال التاريخي الأكثر شهرة للمدن الكثيرة التي أسسها الإسكندر والتي حملت اسمه.

(18) Smith, "Ctesias and the Semiramis Legend," 311.

على الرغم من شخصية نينوس الأسطورية، بطبيعة الحال.

(19) Diodorus, 2.6.9-2.7.1.

وأيضًا، فيما يتعلق بالصفة الإلهية لها:

Smith, "Ctesias and the Semiramis Legend," 304

وكذلك:

Levi, "The Novel of Ninus and Semiramis," 423.

حيث يوضح أنها كانت ابنة لإلهة سورية تُدعى ديريكتو (Derekto).

مـدينة بابل وغـيـرها من المدن الأخـرى، بل ويسـتطرد في حديثه عنها بقدر يفوق كثيرًا ما ذكره عن زوجها نينوس[٢٠].

إن كل هذه الإشارات توحي بأن قصة نينوس وسميراميس تحتوي على قدر من الأسطورة يفوق بكثير ما تشتمل عليه من حقائق. ولكن الأمر المهم الذي يجب ملاحظته، مع ذلك، هو اعتقاد اليونانيين بصحة هذه المعلومات، واعتقادهم أن سميراميس كانت ملكة حقيقية، وهو الأمر الذي يتبين لنا من كتابات هيرودوتوس، مثلما يتضح أيضًا من أعمال الإسكندر الأكبر ذاته. لقد سار هذا القائد بقواته باتجاه عاصمة إقليم جيدروسيا (Gedrosia) الصحراويّ في جنوب إيران، محاولاً اختراق الصحراء وتحقيق ما لم تحققه هذه الملكة، كما يذكر المؤرخ اليوناني أريانوس[٢١]. ومن ناحية أخرى فإن هناك بعض الأعمال الفنية اليونانية الهللينستية التي تمثل

(20) Diodorus, 2.7-20.

وخاصة (٢،٢٠،٣) حيث يكرر الإشارة إلى كتيسياس بوصفه مصدرًا لمعلوماته. انظر أيضًا:

G.W. Cox, The Greeks and the Persians, New York, 1908, 54.

الذي يلاحظ صمت المصادر المصرية عن أعمال سميراميس، وقارن كذلك هيرودوتوس (٢،١٨٤،١) الذي يجعلها ملكة على بابل، ويشير (٥،١٥٥،٣) إلى وجود بوابة تحمل اسمها في تلك المدينة. عن هذه الفقرات في هيرودوتوس انظر مؤخرًا تعليق ديفيد أشيري (David Asheri) في:

Oswyn Murray and Alfonso Moreno, eds., A Commentary on Herodotus: Books I-V, Oxford, 2007, 2003-4, 525.

(21) Arrianus, Anabasis Alexandri, 6.24.1-3.

سـميـرامـيس ونينوس والتي عـثـر على أحـدها في مـدينة أنطاكية القديمة[٢٢].

الأمر الأخير الدال على أسطورية المعاهدة هو اسم الملك العربي أريايوس، الذي لا نجد له مثيلاً عند العرب. حقيقة إننا نقابل الاسم ذاته بعد ذلك في القرون التالية، ولكننا نقابله في سياق الإشارة إلى قائد فارسي في كتاب للمؤرخ اليونانيّ كسينوفون (Xenophon) يرجع إلى بداية القرن الرابع قبل الميلاد، في معرض الحديث عن العلاقات الفارسية اليونانية[٢٣]. إن استخدام ديودوروس لهذا الاسم في الإشارة إلى الملك الذي عقد المعاهدة مع نينوس يجعل من الصعب علينا بطبيعة الحال أن نصدق أنه كان ملكًا عربيًا[٢٤]. ومع ذلك لا يملك المرء سوى أن يتساءل عما إذا كان هذا الاسم تحريفًا بشكل أو بآخر للصفة: "أرابايوس" (Arabaeus) التي تعني "العربي"؟

النواة التاريخية في المعاهدة:

إن كل الدلائل السابقة توضح الكيفية التي يغلب بها الطابع الأسطوري على حديث ديودوروس عن المعاهدة بين

(22) Doro Levi, "The Novel of Ninus and Semiramis," 420-428.
الذي يناقش بعض لوحات الفسيفساء التي تمثل الأسطورة. وانظر كذلك اللوحة الموجودة في نهاية المقالة.

(23) Xenophon, Anabasis, 1.9.31; 2.1.5.

(24) Peter Högmann, Alexander der Grosse und Arabien, in Zetemata: Monographien zur Classischen Altertumswissenschaft, Heft 82, München, 1985, 14. note 10.
حيث يصف الملك العربي بأنه شخصية "لا وجود لها".

الملك الآشوري نينوس ونظيره العربيّ أريايوس. ومع ذلك فإن الأسطورة التاريخية، كما يعرف دارسو التاريخ القديم، دائمًا ما كانت تُنْسَجُ لتفسير بعض الظواهر غير المفهومة، أو لشرح بعض الأحداث التي طواها النسيان[٢٥]. وبالضرورة لا بد أن تشتمل الأسطورة التاريخية على بعض الحقائق[٢٦]. ربما أننا لا نستطيع أن نربط ربطًا مباشرًا ومؤكدًا بين شخصية الملك نينوس وبين أحد الملوك الآشوريين الذين نعرف سجلاتهم، وربما أيضًا أننا لا نستطيع أن نحدد شخصية تاريخية بعينها على أنها الملكة سميراميس، على الرغم من محاولات بعض الدارسين القول بأنها ربما كانت الملكة الآشورية شَمّورامات (Shammuramat)، زوجة الملك شَمْشي أدَاد (Shamshi Adad) الخامس، التي حكمت في الربع الأخير من القرن التاسع قبل الميلاد[٢٧]. ومع ذلك فإن الحقيقة والظاهرة التاريخية التي تدل عليها معاهدة نينوس وأريايوس تتمثل في ظهور

(25) The Oxford Classical Dictionary, s.v. Mythology.

(٢٦) قارن:

The Cambridge Ancient History, vol. 3, part 1, 244: "There is no doubt that both legends [of Semiramis and the Babylonian queen Nitocris] have historical roots and originally came from Mesopotamia." [A. K. Grayson].

(27) Snell, ed., A Companion to the Ancient Near East, 223 [Sarah C. Melville]. The Cambridge Ancient History, vol. 3, part 1, 243-244 [A. K. Grayson]

وكانت شمّورامات أيضًا أمَّ الملك أداد-نيراري (Adad-Nirari) (٨١٠-٧٨٣ ق.م.) ووصية عليه في بداية حكمه.

الإمبراطورية الآشورية الحديثة في مطلع الألف سنة الأخيرة قبل الميلاد ودور العرب في تلك الأحداث.

وأول ما يلفت الانتباه في هذا السياق أن نينوس لم يستعن في جميع حملاته التي قام بها سوى بالعرب، الذين عقد معهم حلفًا والذين تعامل معه ملكهم بوصفه حليفًا[٢٨]. إن الكلمة اليونانية التي يستخدمها ديودوروس هنا نقلاً عن كتيسياس كلمة ذات دلالة اصطلاحية وتستخدم في الإشارة إلى المعاهدات والتحالفات[٢٩]. ويبرر ديودوروس استعانة نينوس بالعرب تحديدًا، ومن ثم السبب في عقد المعاهدة معهم، بأن "بلادهم كانت تمتلئ في ذلك الوقت بالرجال الشجعان"[٣٠]. لقد قارن أحد الباحثين بين أعمال نينوس وبين أعمال الملك الفارسيّ قورش (Cyrus) الأول، مؤسس الدولة الأخمينية في القرن السادس قبل الميلاد، واقترح أن

(28) Smith, "Ctesias and the Semiramis Legend," 316: "But in the whole record of his [Ninus'] wars there is not a single fragment of definite local tradition, not a single concrete detail of the slightest value except the statement that his conquests were made *with the aid of Arab allies*." [Emphasis added].

(29) Diodorus, 2.1.5:
"συμμαχίαν ἐποιήσατο πρὸς Ἀριαῖον τὸν βασιλέα τῆς Ἀραβίας."

(30) Diodorus, 2.1.5:
"[Ἀραβία] ἥ κατ' ἐκεινοῦς τοῦς χρονοῦς ἐδοκεῖ πληρεῖν ἁλκιμῶν ἀνδρῶν."

ديودوروس ربما نسب إلى الأول بعض أعمال الأخير[٣١]. ولكن هذا الاحتمال يبدو بعيدًا ؛ لأن ديودوروس كان ينقل عن كتيسياس الذي اعتمد بدوره على مصادر فارسية، والذي كان واضحًا بشأن هوية نينوس وكونه ملكًا آشوريًا وليس أخمينيًا. إن الافتراض الأكثر احتمالاً هو أن هذه الرواية تحتفظ بذكرى أعمال أحد الملوك الآشوريين أنفسهم. ويمكننا هنا أن نقترح أنها تشير إلى الملك آشورناصِربال الثاني الذي عاش في مطلع القرن التاسع قبل الميلاد. ومما يدعم هذا الرأي أن آشورناصِربال اشتهر بكونه "أول الملوك العظام في الدولة الآشورية الحديثة"، واشتهر بحملاته وبمشروعاته وببنائه لمدينة جديدة اتخذها عاصمة له هي مدينة كاله (Calah)[٣٢].

وبالإضافة إلى ما سبق توجد في حقيقة الأمر بعض الأدلة الأخرى التي تثبت النواة التاريخية التي تشير إليها المعاهدة، وأعني بذلك وجود جماعات عربية قوية ومستقرة وذات دور مؤثر وفاعل على حدود الدولة الآشورية منذ القرن العاشر قبل الميلاد. ويأتي الدليل هذه المرة في صورة نقش أقامه أحد الملوك الآشوريين أنفسهم، الملك شَلمَنِصر (Shalmaneser)

(31) Högmann, Alexander der Grosse und Arabien, 14. note 10.

(32) The Cambridge Ancient History, vol. 3, part 1, 253: "Ashrunasirpal II... is the first 'great' king of the Neo Assyrian period.... [H]e transformed a village on the Tigris into one of the greatest cities of the ancient world." [A. K. Grayson].

وأيضًا:

Snell, ed., A Companion to the Ancient Near East, 15 [Mario Liverani].

الثالث الذي حكم فيما بين عامي ٨٥٩ و٨٢٤ ق.م. ويخلد الملك في هذا النقش انتصاره في موقعة قَرْقَرْ (Qarqar) عام ٨٥٣ ق.م. على التحالف الآراميّ الذي ضم اثني عشر ملكًا تحت قيادة ملك دمشق حدادِّيزر (Hadaddezer) والملك أهاب (Ahab) اليهودي. لقد كان من أهم المشاركين في هذا التحالف ضدّ الملك الآشوري الملكُ العربي جنديبو (Gindibu)؛ الذي أتى مع: "ألف جمَّال من بلاد العرب"(٣٣). ويزودنا هذا النقش بأقدم إشارة تاريخية موثقة إلى العرب في المصادر الآشورية القديمة، وبأقدم دليل يربط بينهم بشكل مباشر وبين الجمل(٣٤)، الذي أصبح بعد ذلك من أهم العلامات المميزة لحياة العرب في شبه الجزيرة العربية في القرون التالية. وتَردُ هذه الإشارة، فيما يتعلق بموقف جنديبو، في سياق العداوَة للدولة الآشورية، وليس كما كان الحال مع نظيره العربيّ

(٣٣) النقش منشور في:
James B. Pritchard, The Ancient Near East: An Anthology of Texts and Pictures, Princeton University Press, 1958, 277-281.

وانظر أيضًا: لطفي عبد الوهاب يحيى، العرب في العصور القديمة: مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٩م، ص ٤٠٩: "هذا النص يأتي بعد ظروف شدت اهتمام الدولة الآشورية بشكل قوي طوال قرن بأكمله، هو القرن العاشر، تجاه المنطقة الواقعة على الحدود الغربية لهذه الدولة."

(34) Jan Retsö, The Arabs in Antiquity: Their History from the Assyrians to the Umayyads, London and New York, 2003, 244.

وأيضًا: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الأول، ص ٥٧٤-٥٧٥ ؛ وإن كان يقلل نوعًا ما من طبيعة استقرار العرب في المنطقة في تلك الآونة.

أريايوس، في سياق التحالف والصداقة. كذلك فإن الحلف الذي عقده جنديبو كان مع ملك دمشق الآرامي ومع الملك اليهودي، وغيرهمَا من حكام دويلات المدن في منطقة الشام[٣٥].

إن المعلومات الواردة في نقش شَلمَنصر تتسم أيضًا بالإيجاز وبكونها غير واضحة فيما يتعلق بهوية الملك العربيّ، وبموقع مملكته. كذلك فإنها لا تتيح لنا أن نحدد الرابطة بين جنديبو وبين الملك أريايوس الذي أشار إليه ديودوروس، إن كانت هناك رابطة من نوع ما. ومع ذلك، وهو الأهم، فإن دور أريايوس بالإضافة إلى دور جنديبو يزودانا بمثالين قديمين لما أصبحت عليه أوضاع الجماعات العربية الشمالية في مراحل تاريخية تالية من انقسام بين القوى التي تسيطر على منطقة بلاد الرافدين شرقًا وتلك الواقعة إلى الغرب منها في بلاد الشام وما وراءها من إمبراطوريات غربًا. كذلك فإن هذا الدور يستبق ما نعرفه بعد ذلك من معاهدات بين الملوك الآشوريين والملوك المجاورين والتابعين لهم[٣٦]، ويعرفنا في المقام الأول ببعض الظروف التي ساعدت الجماعات العربية على الاستقرار في المنطقة. وهكذا فإن الحقيقة المؤكدة هي أن نقش شَلمَنصر الثالث يعطي بعدًا تاريخيًا لما تشير إليه التوراة عن استقرار القبائل العربية في منطقة بادية الشام وعن العلاقات القديمة

(٣٥) عن الحلف الآرامي بشكل عام انظر:
Wayne Thomas Pitard, Ancient Damascus: A Historical Study of the Syrian City-State from the Earliest times Until its Fall to the Assyrians in 732 BCE, Eisenbrauns, 1987, 114,130.

(36) Simo Parpola, "Neo Assyrian Treaties from the Royal Archives of Nineveh", Journal of Cuneiform Studies, 39, 1987, 161-189.

بينها وبين اليهود، في القرن العاشر قبل الميلاد[٣٧]، ويؤكد بشكل غير مباشر ما نسعى إلى توضيحه هنا من وجود قوىً عربيةٍ مؤثرةٍ مقابلة لها في بادية العراق في الآونة نفسها.

وبالمقارنة بنقش موقعة قَرْقَرْ، فإن النقوش الآشورية التالية لها تُعَرِّفنا بشكل أكثر دقة ووضوحًا بالكيفية التي تطورت بها علاقات الآشوريين والعرب في منطقة بادية العراق وبلاد الرافدين[٣٨]. والتي تثبت ما أشارت إليه المعاهدة بين نينوس والملك العربيّ. ولأن الإشارة إلى هذه النقوش بالتفصيل تخرج بنا عن موضوع هذه الدراسة، يكفي هنا أن نذكر بعض الحقائق المستمدة منها لإثبات البعد التاريخيّ للعلاقات الآشورية العربية، ودور العرب في الأحداث التي ترمز إليها معاهدة نينوس وأريايوس. ويتمثل وجه الدقة في هذه النقوش في أنها تذكر في بعض الأحيان أسماءً لملوك، وتشير إلى أحداث تاريخية، يمكن التحقق منها. إننا نعرف على سبيل المثال أن علاقات الآشوريين والعرب المقيمين إلى جوارهم في بادية العراق تطورت بشكل واضح في عهد الملك سِنَّحِيريب (Sennacherib) (٧٠٤-٦٨١ ق.م)،

(٣٧) سفر الأخبار الثاني، ٩: ١٤، حيث يشير إلى علاقات سليمان عليه السلام والسبئيين. وأيضًا: لطفي عبد الوهاب يحيى، العرب في العصور القديمة, ص ٤٠٤؛ وعن أقدم إشارات للعرب في التوراة بشكل عام:

Retsö, The Arabs in Antiquity, 212-229.

(٣٨) على سبيل المثال: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الأول، ص ٥٧٧-٥٩٠.

Pritchard, The Ancient Near East: An Anthology of Texts and Pictures, 281-291.

والملك إسارحَدّون (Esarhaddon) (٦٨٠-٦٦٩ ق.م)، والملك آشوربانيبال (Assurbanipal) (٦٦٨-٦٢٧ ق.م). ويلخص أحد الباحثين مؤخرًا مدى قوة هذه العلاقات، قائلاً: "إن وجود جماعات من بلاد العرب في منطقة ما بين النهرين ذاتها (Mesopotamia proper) يرتبط بالنتائج البعيدة المدى للأحداث التي بدأت في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد والمتمثلة في عودة ظهور بابل"(٣٩).

وعلى سبيل المثال، فإن سِنَّحِيريب في أولى حملاته عام ٧٠٣ ق.م. اجتاح بادية العراق، وكانت من بين المدن المحصنة التي فتحها مدينتان تحملان أسماءً عربية. وبعد حملته الثامنة هاجم أيضًا الجماعات العربية المقيمة في بادية العراق حتى وصل إلى أدوماتو (دومة الجندل)، التي كانت موقعًا حصينًا ومركزًا دينيًا عربيًا مهمًا. ويتضح صدى نتائج هذه الحملات في كتابات المؤرخ اليوناني هيرودوتوس الذي يصف الملك سِنَّحِيريب بقوله إنه كان: "ملكًا على العرب والآشوريين"(٤٠). إن أهمية إشارة هيرودوتوس تتبين بشكل خاص عندما ندرك طبيعة دور العرب في حملة هذا الملك على مصر. وتكتسب المعاهدة السياسية التي يشير إليها ديودوروس بين الملك

(39) Retsö, The Arabs in Antiquity, 153.

(40) Herodotus, 2.141.2.:

"βασιλεὺς Ἀραβίων τε καὶ Ἀσσυρίων."

انظر أيضًا: مصطفى كمال عبد العليم، "هردوت يتحدث عن العرب وبلادهم"، مجلة العصور، المجلد الثاني، الجزء الأول، ١٩٨٧م، ص١٠-١٩.

الآشوري نينوس وبين الملك العربي أريايوس بعدًا تاريخيًا مهمًا في هذا السياق أيضًا، خاصة أن دور الجماعات العربية في الحالتين كان واحدًا.

ويعكس اهتمام هؤلاء الملوك الآشوريين بالجماعات العربية المقيمة إلى جوارهم الأهمية الاقتصادية لهذه الجماعات، تمامًا مثلما يعكس دورُ هذه الجماعات في صراعات الحكام الآشوريين فيما بينهم من ناحية، وكذا بين الآشوريين والبابليين في القرن السابع قبل الميلاد من ناحية أخرى - أهميتها السياسية في المنطقة عندئذ. ومما يؤكد هذا البعد التاريخيّ أن مؤرخًا يونانيًا آخر، هو كسينوفون الذي كان معاصرًا لكتيسياس، يزودنا بمثال تاريخي لعلاقة مشابهة، في أواخر عصر الدولة البابلية الحديثة. إنه يحدثنا في كتابه "تنشئة قورش" (Cyropaedia) عن علاقة التحالف التي ربطت بين الملك العربيّ أراجدوس (Aragdus) وبين الملك البابلي نابونيدوس (Nabonidus)، موضحًا أن الملك العربي ذهب للحرب مع البابليين ضد قورش ومعه "عشرة آلاف فرس ومائة عجلة حربية، وعدد لا يحصى من رماة المقلاع"[٤١].

(41) Xenophon, Cyropaedia, 2.1.5:

"τὸν Ἀράβιον δὲ Ἄραγδον ἱππέας τε εἰς μυρίους καὶ ἅρματα εἰς ἑκατον καὶ σφενδονητῶν πάμπολύτι χρῆμα."

وعن إشارات كسينوفون إلى بلاد العرب بشكل عام، راجع:
Fred M. Donner, "Xenophon's Arabia", Iraq, 48 (1986), 1-14.
وإن كان يتشكك في صحة معلومات كسينوفون عن منطقة شرق نهر الخابور وفي وجود العرب فيها في تلك الآونة.

وتتضح مكانة الملك العربيّ بطبيعة الحال من حجم القوة التي ذهب بها.

وعلى الرغم مما يمكن أن تشتمل عليه هذه المقولة من بعض المبالغة، فمن المهم ملاحظة أن غالبية القوة كانت من راكبي الخيول، وليس الجمال، كما كان الحال مع جنديبو. ويساعدنا كسينوفون على إدراك قوة علاقة التحالف بين العرب المقيمين في بادية العراق وفي منطقة الجزيرة والبابليين، عندما يؤكد ثقة البابليين في العرب، وكونهم لم يصدقوا أن العرب يمكن أن يشاركوا في حصار مدينتهم مع الملك الفارسي قورش عام ٥٣٩ ق.م.[٤٢]. لقد كانت لهذه العلاقات بين البابليين والعرب، وبين العرب والآشوريين من قبلهم، جذورها التي تشير إليها المعاهدة.

(42) Xenophon, Cyropaedia, 7.5.14; see also, 1.1.4; 1.5.2; 7.4.16.

خاتمة:

إن إشـارة المؤرخ اليـوناني ديودوروس إلى المعـاهدة التي عقدها الملك الآشوري نينوس مع الملك العربي أريايوس يمكن أن تُعـدّ دليـلاً على أقـدم مـعـاهـدة بين العـرب وبين إحـدى الممـالك القـديمة المهـمـة في مطلع الألف سنة الأخـيـرة قـبل الميـلاد، لولا غلبـة الطابع الأسطوري على حـديث هذا المؤرخ اليـوناني عنهـا. ويتضح هذا الطابع الأسطوري بشكل خاص من شخصيات الملكين الآشوري والعربي، مثلما يتضح أيضًا من الإشـارة إلى الملكة الأسطورية سِـمـيـراميس، وإلى تاريخ تأسيس نينوى. لقد ربط حديث ديودوروس عن المعاهدة بين شخصيات وأحداث يصعب الجمع بينها في ضوء ما نعرفه من حـقـائق تاريخـيـة ثابتـة. وهكذا فـإنهـا ربما لا تـزودنا بمعلومات محددة عن هوية عرب المعاهدة ولا عن أطرافها، وهو مـا يمكن تفسـيـره بالكيـفـيـة التي وصلت بهـا إلينا هذه المعلومات، والتي وصلت بها إلى ديودوروس نفسه.

وعلى الرغم من ذلك فإن الحقيقـة التاريخية التي ترمـز إليها المعاهدة تتمثل في أنها تزودنا ببعد مهم للوجود القوي والمؤثر للجماعات العربية في بادية العراق ومنطقة الجزيرة، والذي يتضح بعد جيل أو جيلين من خلال الوثائق الآشورية في القرن التاسع قبل الميلاد، ومن خلال كتابات هيرودوتوس وكسينوفون في القرون التالية. إن هذا الوجود يمثل تطورًا منطقيًا لإشارة ديودوروس إلى المعاهدة بين نينوس وأريايوس لأننا عندما نقابل هذه الجماعات في الكتابات الآشورية وفي

الكتابات المتأخرة نقابلها وقد مر وقت طويل على استقرارها في تلك المناطق. وهكذا فإن المعاهدة، على الرغم من طابعها الأسطوري، تُلقِي بعض الضوء على طبيعة العلاقات بين تلك الجماعات العربية المقيمة في بادية العراق والآشوريين في أوائل الألف الأخيرة قبل الميلاد.

الملحق

نينوس وسميراميس على لوحة فسيفساء هللينستية من أنطاكية
(الصورة نقلاً عن: دورو ليفي)

حركة الإنسان والأعمال بين دول الخليج والمغرب العربي

إعداد
دارة الملك عبدالعزيز

(مجلدان)

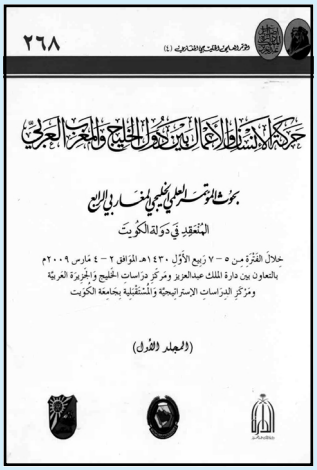

يضم مجموعة من البحوث قدمت إلى المؤتمر العلمي الخليجي المغاربي الرابع، الذي عقدته دارة الملك عبدالعزيز في دولة الكويت خلال المدة ٥-٧ ربيع الأول ١٤٣٠هـ، الموافق ٢-٤ مارس ٢٠٠٩م، بالتعاون مع كل من مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية ومركز الدراسات الإستراتيجية والمستقبلية بجامعة الكويت.

وقد تطرقت البحوث إلى عدد من القضايا والموضوعات التي ترمي إلى توثيق العلاقات بين مجتمعات المنطقة ودعمها، وتوكيد عمق التواصل والانتماء بين الإنسان العربي في مشرق الأمة العربية ومغربها، وإبراز الهوية المشتركة للشعوب العربية من أبناء المنطقة، وأثر النخب العلمية والثقافية في تعزيز حركة الإنسان والأعمال.

وتعد هذه البحوث من الخطوات التي تسعى إلى مد جسور التعاون بين الدول العربية في المشرق ونظائرها في المغرب، وتهيئة المناخ الملائم لإقامة علاقات علمية متينة، وتنشيط مجالات التعاون بين المؤسسات والمختصين وفق برامج عملية مشتركة.

إصدارات دارة الملك عبدالعزيز

ص.ب ٢٩٤٥ - الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية
هاتف ٢١٦٤/٤٠١١٩٩٩ - فاكس ٤٠١٣٥٩٧
بريد إلكتروني info@darah.org.sa